وهم يأملون تهشم ما تبقى من الأصنام الصغيرة في عقول البعض!

الموصليون يستذكرون لحظة سقوط صنم الدكتاتور

الموصل / محمود التحافي

> الموصل ، على الدوام ، هي حالة مختلفة. هذه هي قناعة الاغلبية من ابناء المدينة وهم محقون في بعضها ؛ فالموصل عاشت مرحلة سقوط رمز الطاغية بمشاعر واحداث دراماتيكية متناقضة لايمكن تحليلها الا وفق الضغوط النفسية والاعلامية التي تعرضوا لها طوال فترة الحرب وكذلك اثناء اللحظات الاخيرة لصدام وهو على القاعدة الكونكريتية لساحة الفردوس.

لقد عاش نظام البعث في الموصل مدة (٤٨) ساعة اضافية بعد موته في بغداد؛ فقد تم تسليم المدينة للمليشيات الكردية القادمة من اربيل ودهوك يوم ١١ نيسان من عام ٢٠٠٣ وذلك باتفاق ينص على القاء السلاح وعدم المقاومة، وقد عملت تلك المليشيات على ضمان وصول القوات الامريكية الى المدينة تباعا، حيث اخذت طلائعها تصل بعد يومين من دخول قوات البيشمركة الى الموصل.

طوال فترة الحرب كانت الموصل خاضعة لسطوة الاعلام السوري بشكل كامل؛ فالمعروف ان البث التلفزيوني الارضي لقنوات المحطات السورية يصل الموصل بوضوح كبير. ومن على الشاشة السورية كان المواطن العراقي في الموصل يشحن يوميا بمختلف انواع المشاعر (الدسمة) ويتفاعل، كما كان سابقا، مع شعارات (النصر والزغاريد المستبشرة). كما ان الانتشار العسكري الكبير داخل المدينة والتحصينات العديدة التي صنعها حزب البعث في الشوارع والاحياء السكنية كانت عوامل شد اضافية. الا ان الامور اختلفت تماما يوم التاسع من نيسان، إذ خيم الصمت الشديد على المدينة، وكان عليها، دون غيرها من مدن العراق، ان تتابع عبر وسائل الاعلام المرئية، وبالتحديد السورية منها، محاولات اسقاط التمثال في بغداد.

من الذاكرة

معن عبد الحليم (متقاعد) احد الذين استرجعوا لحظات الانفعال تلك وهو يقول: كان علينا في وقت قصير ان نتكيف مع وضع اصابنا بالدهشة. لقد ترقبت الموصل لفترة طويلة تطورات الاحداث وعينها على الجانب التركي تحديدا، إذ توقعنا ان تسمح تركيا في اللحظات الاخيرة بدخول القوات الامريكية الى العراق من الشمال وهذا معناه انها ستطوق الموصل وان المدينة ستشهد حربا شرسة. وبالمقابل فان وسائل الاعلام المختلفة، ومنها السورية، كانت تبشر بأن الحرب ستطول وان معركة بغداد ستكون حاسمة. وفجأة انتبهنا الى ما كان يعرضه التلفزيون صباحا وبالتحديد يوم التاسع من نيسان وشدنا منظر الحبال وهي حول رقبة تمثال صدام حسين البرونزي في ساحة الفردوس وعلمنا ان كل شيء قد انتهى. ولكن انعكاس هذا تأخر على الشارع الموصلي ونحن نرى الخنادق المنتشرة في الاحياء السكنية وسواتر اكياس الرمل التي يقف وراءها اشخاص يحملون السلاح . هذا التناقض خلق حالة من الترقب شديدة الحرج بالنسبة الينا وقد استمرت الحالة يومين متتاليين ونحن اسرى بيوتنا حتى شاهدنا المليشيات الكردية تتجول في المدينة وهي ترفع رايات صفراً وخضراً وبعدها بأيام استطعنا رؤية الارتال العسكرية الامريكية وهي تجوب الشوارع.

تداعيات سقوط الطاغية

يونس ابراهيم (موظف) قال عن لحظة رؤيته لتمثال صدام وهو يسقط: كان من الصعب علي تصديق هذا. انها لحظة كبيرة وبلا زمن محدد. دهر من القهر ينهار فجأة وبسهولة كبيرة. شعرت بالحزن العميق على نفسي وحياتي التي راحت سدى. اشد ما اوجعني هو اننا دفعنا ثمنا باهضا جدا جدا لسقوط قطعة من البرونز. لقد كان صدام في عقولنا فقط. لم يكن أي شيء في الواقع. اعتاش على خوفنا ورعبنا وموتنا اليومي. المؤسف في الامر ان هذا كله جاء على حساب اجيال سابقة واجيال لاحقة وعلى حساب وطن له تاريخه العريق وعمقه الحضاري.

اشواق عبد الستار (ربة بيت) قالت: انا الان اكثر سعادة من قبل. لقد عشت تلك اللحظات التاريخية وانا خائفة من القادم المجهول. الان وانا اتذكر لحظة سقوط الوثن الصدامي كلي امل بغد جديد. لست مع الذين يضعون الاحباط نصب اعينهم ويتباكون على انفسهم. انا اتفق مع الجميع على ان الوضع الامني وتردي الخدمات والبطالة تضغط بشدة على المواطن العراقي وان هذا كله جاء على غير ما توقعنا، ولكنني ادعو الذين يحنون إلى الزمن الماضي الى محاولة تخيل الامر من جديد والافتراض ان صدام مازال على كرسيه يحكم العراق. لو ان صدام بقي على حاله لزال العراق من تلقاء نفسه. عراق صدام حسين انتهى عمليا قبل سقوط صدام حسين بعقد كامل. الان توجد لدينا امال كبيرة في ان يستعيد بلدنا عافيته ونكون مثل الخلق نعيش في وطن امن ومستقر من دون خوف من احد.

عصام عبد الرحمن (طالب جامعي) وصف لحظة سقوط الطاغية بلحظة الولادة العراقية الجديدة واضاف: لا شيء يعادل سعادة ان نشهد انهيار النظام. انها ولادة جديدة للعراق وللعراقيين. كنا الى وقت قريب لانستطيع الافتراض ان الامور ربما قد تتحسن. كل المعطيات تشير الى اننا سنبقى اليالابد في دائرة جنون عائلة همجية ومتخلفة. كنت اتساءل مع نفسي: ماذا لو مات صدام وجاء عدي؟. كان جنون الوالد اهون من جنون ابنه ورعونته. وكان هذا يثير رعبي كما يثير رعب الملايين. والافتراض الذي كان يقلقني ويميتني خوفا وكآبة كلما خطر على بالي هو ان الوالد اخترع لنا (القادسية الثانية) و(ام المعارك) والايام المقيتة من زحف كبير وبيعة ونخوة واشياء اخرى جنونية. وكنت اقول لنفسي: ماذا سيخترع لنا عدي بعد ذلك اسوة بأبيه؟. المشكلة اننا كنا نعرف ان لامجال للتغيير وصدام صفى خصومه داخل العراق وجلس مطمئنا على صدورنا المختنقة. الحياة كانت سوداء قاتمة في عيوننا ولحظة ان رأيت التمثال وهو يسقط لم اصدق عيني. انها هبة ربانية عظيمة نحمده ونشكره عليها.

عراق جديد

نشوان عبد المنان (كهربائي) قال لـ (المدى): شعرت بمختلف انواع المشاعر لحظة سقوط تمثال صدام. اختلط الفرح بالحزن في حالة نادرة يصعب وصفها، ولكنني كنت وقتها شديد الايمان بان العراق دخل عصرا جديدا. للاسف هناك من يشكك في هذا لانه لايملك قدرة النظر الى البعيد. مازلت رغم الصعوبات التي تمر بنا اؤمن بأن العراق قد تغير فعلا. لقد تعلم العراقي ان يكون تحت الضغط وان لايملك القدرة على التعبير عن نفسه. هذه مشكلة كبيرة. الملايين من العراقيين يؤمنون الان بان الزمن الماضي لن يعود ابدا وبالمقابل هناك حالة من اليأس او حالة من الجهل ببعض الامور. من الناس من اعتقد بان العراق سيختلف بين ليلة وضحاها وان امريكا وغيرها من البلدان تملك قدرة ان تقلب العراق رأسا على عقب، وعندما لم يحدث ذلك اتهموا الامريكان والعالم بأنهم دمروا العراق. يوجد في الموصل من يظن هذا وانا اكلمك وفق هذا المنظور. اعتقد بان الذي يجب ان نفهمه ان العراقي هو من يبني بلده بنفسه وليس امريكا ولا الدول المانحة. العالم يقدم المساعدة ولكنه لايقوم بما يجب ان تقوم به انت من اجل بلدك. لقد شغلتنا الحالة السياسية عن العراق نفسه وهذه حقيقة مرة كما شغلنا الارهاب عن بناء العراق وهي محاولات لمحاربة ديمقراطية العراق وجعله في حالة عجز دائم. لقد اعطانا سقوط الصنم الصدامي درسا بليغا في الحياة وآن لنا ان نتعلم من حطامه. انه يقول لنا ان العراق بني على باطل وهذه هي النتيجة وعلينا الان اعادة البناء وفق الاسس السليمة . كان العراق في عرف صدام جزءاً من أملاكه والان اصبح لنا جميعا وهذه فرصتنا لنصحح المسار ونعيد للعراق بهاء عظمته ورقي تاريخه وان نكون له الابناء البررة.

تماثيل صدام الصغيرة

محمود حسان (مدرس اعدادية) قال: لقد سقط تمثال صدام في ساحة الفردوس وارتحنا منه الى الابد ولكن توجد الآلاف من الاصنام الصدامية الصغيرة في عقول من يكره الخير للعراق والعراقيين. لقد سقط التمثال وانتهى كل شيء ولكن التماثيل الصغيرة المدفونة في النفوس الضعيفة بحاجة لان تسقط ايضا. انا لا ادعو الى اسقاطها بالقوة كما فعل صدام عندما حاول تدمير اعمدة القيم والانسانية في نفوس العراقيين. علينا ان نتبع طرقاً حكيمة لتغيير العقول وان نعطي فرصة لمن يريد ان يراجع نفسه. لقد سقط التمثال ولكننا للاسف الشديد لم يكن لدينا الوقت ولا حتى الوسيلة في التفكير بمعالجة اصنام صدام الصغيرة. ربما نحتاج الى وقت طويل كي نفعل ذلك ولكن الاهم هو ان نسعى الى هذا الان، خاصة وان العراق اصبح كيانا ديمقراطيا جديدا. علينا اجراء التعديلات باستمرار والنظر بعين كبيرة الى قضايا مهمة مثل ثقافة العنف وخاصة عنف الاجيال الجديدة ان نهتم بالطفولة ونحررها من ارهاب العقل الصدامي وان نحرر المؤسسات الحكومية من هذه العقلية الهدامة. انا لاادعو الى الاقصاء الجبري بل الى معالجة الامر بطرق سليمة. نحتاج الى الاعلام لمحاربة العقليات المتخلفة. لابد للعراق ان يكون تنويريا بمعنى الكلمة. لابد من اشعال النور في كل مكان. لابد من الانفاق على التعليم باكبر قدر ممكن. انني ادعو الجمعية الوطنية من خلال (المدى) الى ان تعي دورها الجديد واقول لقادة العراق: انيروا الظلمات بالعلم. اشعلوا الشموع في دروب الاطفال والابناء الجدد. علموا الناس. افتحوا عقولهم بالعلم والنور والمحبة. هكذا يجب ان نحتفل بسقوط صدام. صدام كان كتلة ظلام كثيف وآن الاوان لنرى النور يعم. استثمروا الاموال في تعليم العراقيين. ان عقولنا هي التي تصنع المصانع وترفع البنيان. لن نكون عبيدا لاحد. العلم يحرر الانسان من العبودية وصدام استعمر العقول بالجهل والتخلف. فعل هذا لانه جاهل حاول تعميم جهله على الناس، لكنه فشل بحمد الله ونجا العراق.

الامل

قتيبة قادر (كاسب) تحدث عن الامل الجديد وقال: شيء مفرح ان تأتي الذكرى الثانية لسقوط صدام مع اجراء الانتخابات وقيام الجمعية الوطنية بعقد جلساتها في ظل الديمقراطية العراقية الجديدة. ان المتغيرات السياسية السريعة تبشر بامل عراقي جديد. لقد زال صدام الى الابد وهذا ما علينا ان نعرفه.

الطالبة سمية سليمان قالت: سقوط صدام اعطانا الامل بعراق جديد وبعمر جديد. انها فرحة كبيرة خاصة انها جاءت متزامنة مع انتخاب رئيس جديد للعراق وحكومة جديدة واول برلمان منتخب. نحن في طريق جديد الان ولابد لنا من الوصول الى هدفنا وهو ان نرى بلدنا قد صار اجمل واكثر امنا.

اهالي الاعظمية تذكروا يومها الشهيد الشيخ عبد العزيز البدري

إرهابيون ولصوص افسدوا فرح الأعظمية حين سقط الطاغية

إياد عطية

"فرح نصفه حزن، انتصار نصفه هزيمة، ربح نصفه خسارة" هكذا وصف المواطن محمد عبد الجليل يوم ٢٠٠٣/٤/٩ في مدينة الأعظمية، مختصراً مشاعره المتناقضة يوم سقط الدكتاتور على ايدي قوة أجنبية. وأضاف: "في ذلك اليوم تذكرت الشيخ عبد العزيز البدري الذي قتله صدام بيديه سنة ١٩٦٩ مثلما قتل عشرات من علماء الدين من كلا المذهبين. انها ارادة الله ورغبة الشعب في ان يسقط هذا المتجبر ليكون عبرة لغيره. واعتقد أن كل اهالي الاعظمية تذكروا يومها شخصية ذلك الشيخ الجليل "

الاعظمية صباح ٩ نيسان

يقول قحطان حميد (٤٢ سنة): تسألني ان كنت اتذكر ما حدث في الاعظمية في ذلك اليوم. وهل انسى بل هل ينسى الاعظميون ما حيا احداث ذلك اليوم؟! يمكنني ان انسى احداثاً كثيرة لكنني استطيع ان اصف لك ثواني هذا اليوم ثانية ثانية، فليلة التاسع من نيسان لم تشبه ليالي الحرب التسع عشرة التي قبلها، كانت ليلة غريبة، لا قصف فيها ولا انفجارات، اللهم الا بضع طائرات استطلاع كانت تمشط سماء الاعظمية بين حين وآخر لكن هذا السكون كان مرعباً، خرجنا الى الشوارع الموحشة الخالية، وظل السؤال الذي يراودنا، ترى ماذا يخفي هذا السكون خلفه؟ لا تكاد تسمع حتى صوت اطلاقة! وجاء الصباح يحمل الاخبار، جار يسأل جاره: هل دخل الامريكان بغداد؟ وكان الجواب عند جارنا (ابو دينا) كان الوحيد في شارعنا من يمتلك (ستلايت) ومولدة كهربائية، قال: نعم لقد دخلوا بغداد، وسقط صدام، والامريكان الان في ساحة الفردوس.. تعالوا الى البيت لتشاهدوا هذا الحدث الذي تنقله كل فضائيات العالم...

مشاعرنا تجمدت

وفعلا تجمع شباب المنطقة في منزل (ابو دينا)، وكنا نشاهد سقوط تمثال صدام، واقول لك بصدق، لم نشعر في تلك اللحظة بأي شيء، كأن مشاعرنا تجمدت، لا فرح ولا حزن لا غضب ولا رضا، بل كأن ساحة الفردوس هذه ليست قريبة منا، تخيل ساحة الفردوس لم نشاهدها الا عن طريق الفضائيات، وكان بامكاننا ان نذهب الى ذلك المكان.

هتاف ولعنة!

ويقول سرمد مجيد (٢٠سنة).. كان صدام قبل يومين في الاعظمية، انا وكثير من اهالي الاعظمية شاهدناه قرب مقهى النعمان وفي تقاطع ساحة عنتر لكنه في هذه المرة بدا منهكاً، وتصرفاته لم تكن متوقعة، الناس انتبهوا الى شيء مهم، كان صدام يرتدي فانيلة بيضاء غير متوافقة مع زيه العسكري.

انتهى كل شيء

ويستذكر خالد ناصر (٥٥سنة) المعلم المتقاعد، ذلك اليوم، بقوله: منزلنا بجوار مبنى (القناة الفضائية العراقية) سابقا، وكان حرسها يجتمعون قربه فنتبادل الاحاديث حول الحرب.

وكانت هناك شاحنة فيها اجهزة البث الاذاعي والتلفزيوني داخل احد المشاتل في المنطقة، بينما كان رجال الامن واجهزة المخابرات اتخذوا من مدرسة الحريري وروضة الجمهورية مقرين لهم، كنا نراهم يوميا يتجولون في منطقة الاعظمية، معظم الحديث في تلك الليلة دار حول معركة المطار وحول القوات المدرعة التي جاءت من تكريت والحبانية للتهيؤ الى الهجوم (غير التقليدي) الذي وعد الصحاف بشنه يوم ٩ نيسان، وعندما مضى وقت طويل من دون ان نرى طائرات او اصوات قصف وصواريخ، سألت احد الجنود عما يجري، فقال: (والله العظيم لا اعرف! لكن الضابط اخبرني، بانهم ينتظرون التعليمات!).

ويواصل خالد حديثه قائلا: في الصباح خرجت، ورأيت الجندي قحطان، وقد خلع زيه العسكري وارتدى زياً مدنيا، سألته ماذا يجري؟ رد: (لقد انتهى كل شيء، وداعاً يا ابا سحر!) كانت وجوه الجنود متخشبة، وشفاههم يابسة، وتقهقرهم السريع لم يترك ادنى شك في نفسي أن نظام صدام قد انتهى، لكن سكان الاعظمية لم يروا حتى تلك اللحظة الامريكان مع انهم اصبحوا متأكدين انهم في بغداد.

اين (الرفاق!)؟

ويقول انيس حميد (٢٧سنة) طالب في الجامعة المستنصرية: كانت الاخبار تتوارد بان الامريكان دخلوا، ونظام صدام سقط، لقد تفرق البعثيون، وتركوا خلفهم اسلحتهم وبزاتهم العسكرية مع علب فارغة مرمية هنا وهناك وامتعة وعلب ماء في خنادق من اكياس.

ويقول غسان عادل (٢٤ سنة).. وفيما اختفى البعثيون وترك الجنود عجلاتهم في الشوارع، والعربات الخاكية الموهة بالطين مضينا نتجول في الشوارع، نلهو بالمدافع المنحنية الى الارض، هنا وهناك عربات وراجمات صواريخ، وبزات عسكرية ، وانطقة عسكرية وبساطيل لجنود فروا بأنفسهم من حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل.

غزاة ومفخخون

ويقول عامر ياسين (٣٧سنة): كانت الانباء تتدفق وكلما طوى نهار التاسع من نيسان ساعة من ساعاته ازداد القلق، فبينما كان سكان بغداد يخرجون مندفعين بفرح ويمارسون الحرية اول مرة في حياتهم، يرقصون، يصرخون، يبكون، يحطمون ويحرقون صور الصنم، كانت الاعظمية مسكونة بالقلق الزاحف الى القلوب مع زحف الارتال الامريكية، فهناك وجوه غريبة تراقب الناس والشوارع والوجوه بحذر، السنتها غريبة. وكلما كان النهار يطوي ساعاته ويقترب الغروب، تزداد أعداد المسلحين ذوي الوجوه الغريبة العابسة: كانوا يحملون بنادقهم، ويستعدون للحظة ملائمة يصنعون فيها حرباً يخوضونها على طريقتهم في مدينة لاتهمهم أرواح اهلها.

وكان قدر الاعظمية ان تكون في ليلة افراح العراقيين مسرح حرب اخرى طرفاها غزاة ومفخخون.

يقول علي ازهر (٢٨ سنة) عن مشاهداته في الصباح الذي اعقب تلك الليلة: لم نصدق اننا بقينا على قيد الحياة في الصباح التالي، كانت اثار تلك الليلة محفورة على جدران البيوت، وبقايا العجلات المنصهرة، وكانت هناك اجساد لموتى.، لم تكن تلك الجثث لجنود عراقيين، في ساحة الربيعين، وقرب المقبرة الملكية، وبين ازقة الشوارع، كان هناك اشخاص بحالة بائسة يسيرون بحذر وذهول في الشوارع، وبدا انهم ضائعون، يجرون اقدامهم الى طريق مجهول اخر، كان معظمهم من الافغان والسوريين، اهالي الاعظمية قدموا لهم الماء والطعام، انا بنفسي ساعدتهم وقدمت لهم السكائر وكنا نشعر بأنهم ضلوا الطريق. انها الطيبة العراقية التي جرأت علينا الاخرين.. وفي هذا اليوم كانت الدبابات الامريكية تتجول في شوارع الاعظمية..

ابتلاءات عبد المحسن السعدون!

تحت الضوء

حسين محمد عجيل

هو صاحب التمثال الأصغر حجما في شوارع مدينة تحتفي بالضخامة، وهو أيضاً سليل العائلة التي حكمت عشائر المنتفق وشطرا من الجنوب العراقي في القرون المتأخرة. ولعله من أكثر الشخصيات التي تركت أثراً ما زال غامضاً في تأسيس الدولة العراقية، استطاع أن يجمع تفاحات عصية الجمع في راحة يده؛ فبعد أن كان ضابطاً في الجيش العثماني، في المفرزة التي كانت تمثل الحلقة الضيقة لحراسة السلطان العثماني عبد الحميد الثاني قبل أن يخلع، أصبح عضوا في (مجلس المبعوثان) وهي التسمية الرسمية للبرلمان العثماني الذي يجتمع - من الولايات المتناثرة بين قارات العالم القديم الثلاث -في استانبول حاضرة الدولة العلية. وجد نفسه بعد سنوات قلائل من احتلال البريطانيين لبغداد واحداً من الوزراء الأوائل في الحكومة العراقية الخاضعة لسلطة الانتداب، ليصل من ثم إلى أعلى منصب في تلك الحكومة بتكليف من الملك الذي يسود ولا يحكم، بنص القانون الأساسي العراقي لسنة ١٩٢٥ غير المعدّل.

في عام ١٩٢٨ وجد عبد المحسن السعدون أن التفاحات الأربع التي تناسلت لتكون خمسا أو سبعا أصبحت عصية على الإمساك، فالتفاحة البريطانية المتقافزة بدت وكأنها مصنوعة من المطاط لا تمكن يدَ سليل العائلة السعدونية الذي صار ضابطاً فبرلمانيا فوزيرا فزعيما لحزب ورئيسا لوزراء دولة فتية اسمها العراق، أن يمسك بها كما الأخريات.

فجأة يكتشف عبد المحسن السعدون أن عينيه لا تبصران في يديه سوى الفراغ، فأمسك بيد ترتجف قلما بعد أن جنّ الليل وكتب باللغة التركية، التي كان يجيدها أكثر من العربية، بضع جمل قال فيها أنه لم يستطع التوفيق بين رغبات الاحتلال الإنكليزي وبين رغبات أهل البلاد؛ ولذلك قرر أن ينهي حياته.

وضع القلم على الطاولة وأمسك باليد الفارغة مسدساً أسدلت طلقاته الستار على حياة عريضة لم يجرؤ أحد من مؤرخينا ولا كتابنا ولا روائيينا على أن يوثق تاريخياً أو إبداعياً مساحاتها الغامضة، باستثناء المحاولة المبكرة لصديقه الكاتب المجدد علي الشرقي. ومع أن ظروف الوفاة، أو فلنقل واقعة الانتحار، في بلاد إسلامية تجعل من الصعب التعامل مع من أنهى حياته بهذه الطريقة على نحو احتفائي، ولكن كان لتلك الوصية المكتوبة بالتركية، بتلك الجملة الحائرة بين رغبات الأهالي ورغبات المحتلين، أن جعلت الكثيرين ينظرون إلى حياة السعدون ووفاته الفاجعة على أنها ضرب من الشهادة. فأقيمت مجالس العزاء في طول البلاد وعرضها، وتبارى الشعراء والخطباء في تعداد مآثره وما أصاب البلاد، إذ فقدته، من خسارة. وأعلن الحداد الرسمي ونكست الأعلام. وتوج ذلك الاحتفاء الرسمي بعد مدة بنصب تمثال له، نفذه فنان إيطالي بالحجم الطبيعي ليرتفع في شارع سمي باسم الفقيد، اكتسب أهمية كبيرة باعتباره شارعاً يمثل واجهة بغداد. وظل التمثال الصغير منتصبا حين تساقطت نظيراته في أماكن أخرى مع تبدل الحكومات والأنظمة.

لكن يبدو أن الأيام أخفت للرجل الذي أنهى حياته بصمت، مفاجآت غير سارة حين سرق تمثاله البرونزي في حادثة وقعت في فجر تموزي من عام ٢٠٠٣ وصفها شاهد عيان بقوله: بدا السراق كأنهم حمالون، ربطوا التمثال بحبل وجروه بقوة مرارا حتى ارتخت الآصرة التي تربط التمثال بقاعدته، فانتزعوه ولفوه ببطانية عسكرية على ظهر عربتهم ومضوا قبل أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر.

لكأني بالتمثال استيقظ في غبش ذلك اليوم على بغداد التي يعرفها في عقد العشرينيات بعربات تجرها حمير متعبة.

وحين تنادى المتبقي من عائلة الزعيم السياسي وأحفاده، والمهتمون بالتراث الفني العراقي وبشواهد بغداد الشاخصة لإعادة التمثال إلى قاعدته، يئسوا من العثور عليه. وإذ قيل لهم أن مادة البرونز المصنوع منها قد صهرت وربما تحولت أجزاء من تمثال السعدون إلى إبريق نحاسي في سوق الصفافير أو صينية نحاسية أو ما لا يعرف أحد؛ كان الحل الذهبي أمامهم هو البحث عن قالب التمثال وإعادة صبه من مادة أخرى، يقال أنها أرخص من البرونز. وهكذا كان.. وأعيد التمثال ببريق أخاذ هذه المرة إلى قاعدته التي ظلت فارغة بضعة أشهر.

لكن لم تنته معاناة عبد المحسن السعدون، فقبل عيد الأضحى الذي مضى قبل أشهر، وقفت سيارة (كيا) في المكان الذي يتطلع إليه السعدون منذ عقود، وفجأة التصقت السماء بالأرض في عيون المارة، واهتزت المباني وتطايرت الرؤوس والأيدي والأرجل على الأديم، وتبعثرت أجزاء السيارات، واندلقت بضائع المحال التجارية متكدسةً على الأرصفة سادةً منافذ الهروب على من في الداخل.. وانسفح الدم البشري على الأسفلت..

كان يوماً دامياً لم يرَ عبد المحسن السعدون أشد منه حتى في ليلة انتحاره. لكنه لم يفاجأ حين عاد المارة في اليوم التالي، وازداد ازدحام السيارات من جديد، وافترش الباعة البسطاء بسطاتهم على أرصفة ساحة النصر. بل لعله لم يفاجأ أيضا حين عُلقت لافتات دعائية على قاعدته، بعد مدة قصيرة، يعرض فيها سياسيون على جمهرة المارة برامجهم السياسية سينفذها من ينجح منهم بالوصول إلى منصب رئيس الوزراء مثلا. لم يفاجأ لأنه ترك خلفه، يوم مات، تجربةً ديمقراطية كانت في طور النمو، وما كان يعرف ما فعل الجُناة من بعده!

وكان آخر ما حلّ بعبد المحسن السعدون من ابتلاءات أن ضاق فضاؤه وحجبت عنه رؤية جانب من المشهد المتحرك الذي كان يتلذذ، أو يتعذب، بإدامة التطلع إليه؛ حين قام ما لا نعرف من أجهزة الحكومة بوضع كابينة بيضاء على مبعدة ثلاثة أمتار من قاعدة التمثال المزيف، الشاهد على تمثال لا يعرف أحد أين هو الآن!